المحاضرة (03): النقد الأسلوبي

تمهيد:

الأسلوبية من المناهج النقدية النسقية؛ تعنى بدراسة وسائل التعبير الأدبي، سعيا منها للكشف عن جماليات الإنشاء الأدبي، وأثرها في تبليغ المقاصد الحقيقية للنص؛ وبما أن الأسلوب خبرة إبداعية تختلف باختلاف الأدباء فإن مقاربتها تحدد طبيعة الخبرات اللغوية لديهم، وبالنظر إلى أهمية هذا الطرح بالنسبة للدراسة النقدية في فهم المنجزات الأدبية خاصة الشعرية منها؛ استطاعت الأسلوبية فرض حضورها ضمن أهم مناهج النقد المعاصر اشتغالا وتداولا.

تعريف الأسلوب:

عرّف "بيار جيرو" الأسلوب بأنه: «طريقة في الكتابة، وهو استخدام الكاتب لأدوات تعبيرية من أجل غايات أدبية»[1]؛ وتختلف طرائق الكتاب في اشتغالهم على أدوات التعبير اللغوي؛ ومهما تعددت الغايات الأدبية فإن الأدباء في بحث مستمر عن معطيات كتابية مستحدثة من شأنها تعزيز مواقفهم الجمالية.

أما "يوفون" فقد أشار في تعريفه للأسلوب إلى أنه خبرة إنسانية تستعصي على النقل والتعديل؛ كونه مختلف كل الاختلاف عن سائر المعارف والوقائع والكشوف التي تتعلق بالإنسان إلا أنها تقع خارج كينونته الإنسانية؛ في حين أن الأسلوب حسب قوله: «هو الإنسان نفسه، فالأسلوب لا يمكن أخذه، ولا نقله، ولا تعديله»[2].

والقول بأن الأسلوب هو الإنسان نفسه يوحي بذاتية الاشتغال الأسلوبي على معطيات اللغة لدى الأديب؛ حيث «تمدّه الخاصية الذاتية بقوة دافعة تنبع من العوامل الشخصية التي تدفع الأسلوب في طرق التأليف المميزة، والتي تشكل ما يعرف بالعملية الإبداعية»[3].

وتتصل هذه العوامل الشخصية بالمرجع الثقافي للمبدع؛ خاصة الثقافة اللغوية التي تمكنه من التعامل بحرية مع مختلف الخيارات اللغوية والبدائل التعبيرية التي يمتلكها، وهذا ما يفسر مسألة التفاوت بين الأدباء من حيث السمات الأسلوبية المميزة في نصوصهم.

---

[1] – بيار جيرو، الأسلوب والأسلوبية، ترجمة منذر عياشي، مركز الإنماء القومي، بيروت، لبنان، (د.ت.ط)، ص 9.

[2] – شكري عيّاد اللغة والإبداع – مبادئ علم الأسلوب العربي، أنترناشيونال للطبع والنشر، القاهرة، مصر، 1988، ص 24.

[3] – شوقي علي الزهرة، الأسلوب بين عبد القاهر وجون ميري – دراسة مقارنة، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، 1996، ص 69.

محددات الأسلوب:

تمر الممارسة الأسلوبية بثلاثة محددات كبرى؛ تتمثل في الاختيار، والانزياح، والتركيب؛ حيث تعمل عملها في سياق شبكة معقدة من العلاقات اللغوية التي من شأنها صياغة النموذج اللغوي تماشيا ومتطلبات الموقف الجمالي في التعبير، إلا أن مهارة الانزياح قد شغلت اهتمام الدرس الأسلوبي حتى أطلق عليه «علم الانزياحات اللغوية»[1].

لقد ركزت الأسلوبية في مقارباتها النقدية على ظاهرة الانزياح كونها تمثل بؤرة الاشتغال اللغوي؛ فهي مرتبطة في الآن ذاته بمسائل الاختيار، وشروط التركيب؛ فلا نكاد نتصور وجود انحراف أسلوبي لم يمر بمراحل الاختيار والتركيب؛ حيث يخضع لمجموعة من العلاقات اللغوية التي من شأنها ربط الاتصال بين قصدية المتكلم وتأويلية القارئ.

وتعد خاصية الانزياح أو العدول من أهم خصائص الأسلوب؛ وهي على قدر من الغموض والتعقيد يجعلها تستعصي على الكشف والتحديد، إلا أنها ذات طاقة جمالية كبيرة من شأنها الاستحواذ على القارئ وتحفيزه للمشاركة في الإنجاز الأدبي؛ وهذا ما يؤكد البعد التواصلي للممارسة الأسلوبية؛ على أساس أن «الأسلوب بتحويله من النفعية إلى التأثيرية يتسم بطابعه الجمالي الفني، الذي يقوم على أساس دراسة الأنماط التعبيرية في انزياحاتها، وخروجها عن اللغة العادية في منطقية الأداء، إنها رؤية جديدة في الكتابة، وتحوير في الصيغ اللغوية، والصور الفنية»[2].

وكلما كان الأسلوب أكثر انزياحا وعدولا كلما ابتعد أكثر عن عتبة النفعية؛ وكان أقرب لتحقيق مقاصده التأثيرية؛ وهذا ما يحقق فرادته واختلافه في التعامل مع الخيارات اللغوية؛ ذلك أن اللغة عامة، والأسلوب خاص، وأن الأعمال الأدبية تقاس بدرجات الانحراف التي تصلها على مستوى التشكيلات الأسلوبية الخاصة بها.

وبما أن اللغة النظام تمثل المعيار بالنسبة للناطقين بها، فإن الأسلوب انحراف عنها في حدود ما تقبله قوانين الاستعمال اللغوي؛ صوتا وصرفا ونحوا ودلالة، وهذا ما يفترض وجود نوعين من اللغة؛ إحداهما معيارية، والأخرى شعرية؛ «إلا أنها –أي هذه الانحرافات– لا تشكل منهجا، وطريقا ثابتا يمكن من خلاله رسم صورة معينة، يتحقق من خلالها جمال التعبير، وفنية الأداء»[3].

---

[1] – جان كوهين، بنية اللغة الشعرية، ترجمة محمد لمولي ومحمد الغمري، ط1، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، 1986، ص 16.

[2] – قدوسي نور الدين، القيمة العدولية في الصورة الاستعارية – قراءة في جمالية التلقي، مجلة القلم، ع 27، جامعة السانية، وهران، الجزائر، يناير 2013، ص274.

[3] – مختار عطية، التقديم والتأخير ومباحث التراكيب بين البلاغة والأسلوبية، ص 65.

وبالرغم من تعدد الانحرافات الأسلوبية في النصوص الأدبية إلا أنها نماذج غير ثابتة؛ كونها لا تخضع لشروط محددة في التشكيل والبناء؛ وهذا ما حال دون محاولة ترسيم نموذج إجرائي محدد لظاهرة الانزياح في الأدب، فضلا عن مسألة القراءة وما يتصل بها من تفاوت في الفهم والتأويل؛ جعلها غير قادرة على الثبات مهما حاولت ذلك.

ولعل من الإشكاليات التي لابد من إثارتها في هذا السياق مسألة الخصوصيات الأسلوبية في اختلافها على مستوى الأنواع الأدبية؛ «فأسلوب الشعر تتم مقاربته على مستوى البنى التعبيرية الصغرى، ودرجات توافرها، أما أسلوب الرواية فنظرا لاتساع مساحته النصية، واختلاف تقنياته التعبيرية فإنه يُلتقط عبر البنى الكبرى المرتبطة بتعدد الأصوات، وبأبنية الزمان، والمكان، وبالشكل الكلي للخطاب الروائي في جملته، ودرجة تحقيقه لأنواع متميزة من شعرية السرد، كما أن لغة المسرح بدورها تتخذ تشكيلات مخالفة لما رأيناه في الشعر والسرد طبقا للمكونات الدرامية للنص المسرحي، وطبيعة إشاراتها، وأنواع الكتابة المسرحية، الأمر الذي يجعل السمات اللغوية غير كافية وحدها لتوصيف الأساليب المسرحية الكبرى»[1].

تتعدد طرائق التحليل الأسلوبي في الخطاب النقدي الإجرائي حسب النوع الأدبي المدروس؛ ذلك أن وسائل التعبير تختلف لدى الشاعر والروائي والمسرحي؛ احتكاما لخصوصية النص واختلافه، وهذا ما يطرح إشكالية التعدد في التناول الأسلوبي لدى القارئ أيضا في تعامله مع:

- **أسلوبية الشعر**: التي تخضع لمقاربة البنيات التعبيرية الصغرى، ودراسة تواترها وتكرارها.
- **أسلوبية الرواية**: التي تخضع لمقاربة البنيات التعبيرية الكبرى المتعلقة بالزمان والمكان، ومكاشفة تعدد الأصوات.
- **أسلوبية المسرح**: التي تخضع لمقاربة البنيات الدرامية والحوارية وغيرها.

اهتمامات النقد الأسلوبي:

الأسلوبية هي الدراسة النقدية التي تعنى بتحليل الأساليب الأدبية؛ وقياس أثرها الجمالي بالنظر إلى المرجع اللغوي وما يحتكم إليه من شروط وقوانين؛ كما تتطلع لتأويل معطيات الانزياح والخروج عن العرف اللغوي المتداول إلى استحداث أنماط تعبيرية غير مسبوقة.

[1] – صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر، دار الآفاق العربية، القاهرة، مصر، (د.ت.ط)، ص 109.

ويرى "ريفاتير" أن الأسلوبية «علم يُعنى بدراسة أسلوب الآثار الأدبية دراسة موضوعية، وهي لذلك تُعنى بالبحث عن الأسس القارة في إرساء "علم الأسلوب"، وهي تنطلق من اعتبار الأثر الأدبي بنية ألسنية، تتجاور مع السياق المضموني تجاورا خاصا، ولما كانت الأسلوبية تُعنى بالنص في ذاته بعزل كل ما يتجاوزه من اعتبارات تاريخية، أو نفسية، فإنها تهدف إلى تمكين القارئ من إدراك انتظام خصائص الأسلوب الفني، إدراكا نقديا، مع الوعي بما تحقّقه تلك الخصائص من غايات وظائفية»[1].

أما عن ممارسات التحليل الأسلوبي للنصوص الأدبية، وتتبع آثارها الجمالية فإن الأسلوبية «تعتمد في ذلك على مجموعة من العناصر؛ أولها العنصر اللغوي الذي يدور في إطار اللغة، وثانيها العنصر العملي الذي يُعنى بالمؤلف، والقارئ، والسياق التاريخي، والظروف التي صاحبت خلق النص، وثالثها العنصر الجمالي الذي يتصل بالنقد الأدبي، ويتناول التأثير على القارئ، والتفسير النقدي للنص، والقيمة النقدية للأسلوب»[2].

تكاد الأسلوبية بالنظر إلى عناصر التحليل التي تعتمدها في دراسة النص الأدبي أن تكون شاملة في رؤيتها النقدية؛ ذلك أنها وبالرغم من تصنيفها كواحد من أهم المناهج النقدية النسقية إلا أنها لا تغفل تأثير السياقات المنتجة للنص دون المبالغة في العناية بها؛ أما الجانب اللغوي وما يتصل به من مؤشرات جمالية فيعد من صميم النسق النصي.

وبما أن الأسلوبية تشتغل أكثر شيء على الخيارات اللغوية لدى الأدباء فلا شك أنها تلتقي في نقاط معينة مع معطيات التحليل اللغوي؛ إلا أن «الأسلوبية تفهم اللغة في كونها إبداعا، بينما ينظر إليها التحليل اللغوي كمجال للتطور، والتاريخ، ويبقى الأسلوب مصبا للقيم التعبيرية، والجمالية معا، ولا يستبعد أبدا اعتبار الفكر اللغوي –هو الآخر– فكرا أسلوبيا مفعما بالدلالة، ابتداء من الصوتي، والصرفي، والنحوي، والتركيبي ...؛ لأنها عناصر ما سيقت على ذلك الوجه إلا لتؤدي قيما تعبيرية معينة»[3].

[1] – نور الدين السد، الأسلوبية وتحليل الخطاب – دراسة في النقد العربي الحديث (الأسلوبية والأسلوب، ج1، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 1997، ص 18 – 19.

[2] – مختار عطية، التقديم والتأخير ومباحث التراكيب بين البلاغة والأسلوبية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر، 2005، ص 53.

[3] – حبيب مونسي، نقد النقد المنجز العربي في النقد الأدبي،(د.ط)، منشورات دار الأديب، وهران، 2007، ص 203.

والقيمة التعبيرية هي التي تحدد القيمة الجمالية بالنسبة لأي ممارسة أسلوبية؛ لا يسعها بأي حال من الأحوال أن تشتغل خارج إطار الكفاءة اللغوية؛ بمعنى أن اللغة المرجع تتحول إلى خبرة جمالية بفعل المهارات التعبيرية في الإنشاء الأسلوبي، وأن مهمة الناقد الأساسية أن يفسر إشكالية التحول من اللغة النظام إلى اللغة الأسلوب.

خلاصة:

تعنى الأسلوبية بالمقاربة النقدية للأنساق النصية على اختلافها؛ مركزة على الأثر الجمالي في الإنشاء الأدبي، مع دراسة مختلف مظاهر الاختيار والتركيب؛ وبالرغم من الجهود التي قدمت في هذا الاتجاه إلا المنهج الأسلوبي لم يتمكن من الانفصال وبشكل نهائيا عن الإفادة من شروط الدرس اللغوي الحديث، فضلا عن أنه لم يتمكن من سد ثغرات التفاوت والنسبية على مستوى تصوراته الإجرائية.